وصف ما لا يعقل في القرآن الكريم

د. محمد السعيد عبد الله عامر
أستاذ مساعد بمعهد اللغة العربية
جامعة أم القرى

مقدمة

ان القارئ لكتاب الله تعالى قد تستوقفه ألفاظ أو معان تحتاج الى بحث وتمحيص عن قواعدها، منها ما له نظير في الشواهد النثرية ومنها ما لا نظير له، ومنها ما يوجد تعليل له، وبعض آخر لا يوجد له تعليل، وهناك من التعبيرات القرآنية ما يحمل على غير القاعدة الاعرابية ومن بين ما استوقفني أوصاف غير العقلاء. فأحيانا أجدها تطابق الموصوف، واحيانا لا أجدها تطابقه، وذلك في النعت الحقيقي مع علمنا أن النعت الحقيقي يجري على منعوته افرادا وتثنية وجمعا، وتذكيرا وتانيثا، فكان هذا دافعا للبحث عن سبب ذلك وتقعيده، وكان لا بد لي أولا من أن أطالع كتب اعراب القرآن ومعانيه وتفسيره بحثا عن السبب: هل هو لذات اللفظ أو لمعناه، أو لسياق آخر غيرهما، ثم أثني بكتب القواعد النحوية، لأعرف رأي العلماء في هذه الظاهرة، وهل لها نظير أو شواهد أو قاعدة عندهم، وأخرج بعد ذلك بنتيجة مستخلصة تقعد هذه الظاهرة، وارجو ان أكون قد وفقت بعد ذلك في الحديث عن "صفة ما لا يعقل في القرآن الكريم" والله المستعان وبالله التوفيق والسداد في القول والعمل.

أولا: ما جاء في القرآن الكريم وكتب اعرابه وتفسيره ومعانيه:

أ. وصف الجمع بالجمع:

١ــ يقول الله تعالى:(كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون، أياما معدودات) ــ البقرة ــ ١٨٤.

١ــ يقول أبو حيان[١]: "ان كان مافرض صومه هنا هو رمضان، فيكون قوله: (أياما معدودات) عنى به رمضان... ووصفها بقوله: (معدودات) تسهيلا على المكلف بأن هذه الأيام يحصرها العد ليست بالكثيرة التي تفوت العدّ، ولهذا وقع الاستعمال بالمعدود كناية عن القلائل كقوله: (في أيام معدودات)، (لن تمسنا النار الا أياما معدودة)، (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة).

وان كان ما فرض صومه هو ثلاثة أيام من كل شهر، وقيل: هذه الثلاثة ويوم عاشورا كما كان ذلك مفروضا على الذين من قبلنا، يكون قوله (أياما معدودات) عني بها هذه الأيام "اهـ

٢ــ ويقول السمين[٢]: "ومعدودات صفة، وجمع ما لا يعقل بالألف والتاء مطرد نحو هذا، وقوله: جبال راسيات، وايام معلومات "اهـ

٢ــ يقول الله تعالى: (واذكروا الله في أيام معدودات). البقرة ــ ٢٠٣ ــ.

١ــ يقول العكبري.[٣] "إن قيل: (الأيام) واحدها (يوم)، و (المعدودات) واحدها (معدودة)، واليوم لا يوصف بمعدودة، لأن الصفة هنا مؤنثة، والموصوف مذكر، وانما الوجه: أن يقال: أياما معدودة، فتصف

الجمع بالمؤنث

فالجواب أنه أجرى (معدودات) على لفظ (أيام) وقابل الجمع بالجمع مجازا، والأصل: معدودة، كما قال: (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة).

ولو قيل: ان الأيام تشتمل على الساعات، والساعة مؤنثة، فجاء الجمع على معنى ساعات هذه الأيام، أو في معظمها لكان سديدا. ونظير ذلك الشهر والصيف والشتاء، فإنما يجاب عنها بالعدد، وألفاظ هذه الأشياء ليست عددا، وانما هي أسماء المعدودات فكانت جوابا من هذا الوجه" اهـ

٢ــ ويقول السمين:[٤] "معدودات : صفة لأيام، وقد تقدم أن صفة ما لايعقل يطرد جمعها بالألف والتاء، وقد طول أبو البقاء هنا بسؤال وجواب..... وفي هذا السؤال والجواب تطويل من غير فائدة.

وقوله: مفرد (معدودات): (معدودة) بالتأنيث ممنوع، بل مفردها (معدود) بالتذكير، ولا يضر جمعه بالألف والتاء؛ إذ الجمع بالألف والتاء لا يستدعي تأنيث المفرد، ألا ترى الى قولهم: حمامات، وسجلات، وسرادقات " اهـ

٣ــ يقول الله تعالى: (ذلك بأنهم قالوا: لن تمسنا النار الا أياما معدودات) آل عمران ــ ٢٤.

١ــ يقول أبو حيان:[٥] "تقدم تفسير هذه الأيام المعدودات في سورة البقرة، فأغنى عن إعادته هنا، إلا أنه جاء هناك (معدودة)[٦] وهنا معدودات، وهما طريقان فصيحان، تقول: جبال شامخة وجبال شامخات، فتجعل صفة جمع التكسير للمذكر الذي لا يعقل تارة لصفة الواحدة المؤنثة، وتارة لصفة المؤنثات، فكما تقول: نساء قائمات، تقول: جبال راسيات، وذلك مقيس مطرد "اهـ

٢ــ ويقول السمين:[٧] "وجاء ــ هنا ــ (معدودات) بصيغة الجمع، وفي البقرة (معدودة) تفننا ي البلاغة، وذلك أن جمع التكسير غير العاقل يجوز أن يعامل معاملة الواحدة المؤنثة تارة، ومعاملة جمع الاناث أخرى،فيقال: هذه جبال اسية، وان شئت راسيات، وجمال ماشية، وان شئت ماشيات. وخص الجمع بهذا الوضع، لأنه مكان تشنيع عليهم بما فعلوا وقالوا، فأتي بلفظ الجمع مبالغة في زجرهم وزجرمن يعمل بعملهم " اهـ

٤ــ يقول الله تعالى: (فعدة من أيام أخر) البقرة ــ ١٨٥ ــ

١ــ يقول أبو حيان[٨]: " و (من ايام) في موضع الصفة لقوله: (فعدة)، و (أخر) صفة لـ (أيام)، وصفة الجمع الذي لا يعقل تارة يعامل معاملة الواحدة المؤنثة، وتارة يعامل معاملة جمع الواحدة المؤنثة، فمن الأول: (أياما معدودة) ومن الثاني: (أياما معدودات) ، فمعدودات جمع لمعدود، وأنت لا تقول: يوم معدود، وانما تقول: معدود، لأنه مذكر، لكن جاز ذلك في جمعه، وعدل عن ان يوصف الأيام بوصف الواحدة المؤنث، فكان يكون (من أيام أخرى)، وان كان جائزا فصيحا، لأنه كان يلبس أن يكون صفة لقوله: (فعدة)، فلا يدرى: أهو وصف لعدة أم لأيام. وذلك لخفاء الاعراب، لكونه مقصورا، بخلاف (أخر) فانه نص في انه صفة لـ (أيام)، لاختلاف إعرابه مع اعراب (فعدة)، فلا ينصرف للعلة التي ذكرت في النحو، وهي: جمع (أخرى) مقابلة (آخر)، و (أخر) مقابلة (آخرين) لأجمع

(أخرى) بمعنى (آخرة) مقابلة (الآخر) المقابل للأول، فان (أخر) تأنيث (أخرى) بمعنى (آخرة) مصروفة" اهـ

٢ـ ويقول السمين[٩]: "وانما وصفت (الأيام) بـ (أخر) من حيث انها جمع مالا يعقل، وجمع ما لا يعقل يجوز أن يعامل معاملة الواحدة المؤنثة، ومعاملة جمع الاناث، فمن الأول: (ولي فيها مآرب أخرى)[١٠]، ومن الثاني: هذه الاية ونظائرها، وانما أوثر فيها معاملة الجمع، لأنه لوجيء به مفردا، فقيل: عدة من أيام أخرى لأوهم أنه صفة لـ (عدة) فيفوت المقصود "اهـ

ب ـ وصف المفرد بالجمع:

١ـ يقول الله تعالى: (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) الزمر ـ ٢٣.

يقول الزمخشري:[١١]. فإن قلت: كيف وصف الواحد بالجمع؟ قلت: إنما صح ذلك، لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل، وتفاصيل الشيء هي جملته لا غير، ألا تراك تقول: القرآن أسباع وأخماس وسور وآيات، وكذلك تقول: أقاصيص واحكام ومواعظ ومكررات، ونظيره قولك: الانسان عظام وعروق واعصاب الا أنك تركت الموصوف الى الصفة، واصله: كتابا متشابها فصولا مثاني، ويجوز أن يكون كقولك برمة أعشار وثوب أخلاق، ويجوز أن لا يكون (مثاني) صفة، ويكون منتصبا على التمييز من (متشابها)، كما تقول: رأيت رجلا حسنا شمائل، والمعنى: متشابهة مثانية "اهـ

٢ـ يقول الله تعالى: (قل فاتوا بعشر سور من مثله مفتريات) هود ـ ١٣ ـ

١ـ يقول الزمخشري:[١٢] (مثله) بمعنى (أمثاله) ذهابا الى مماثلة كل واحد منها له".

٢ـ ويقول أبو حيان:[١٣] "ومثل يوصف به المفرد والمثنى والمجموع، كما قال تعالى: (انؤمن لبشرين مثلنا).[١٤]

وتجوز المطابقة في التثنية والجمع كقوله: (ثم لا يكونوا امثالكم)[١٥]، (وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون)[١٦].

واذا أفرد وهو تابع لمثنى أو مجموع، فهو بتقدير المثنى والمجموع، أي مثلين وأمثال، والمعنى ـ هنا ـ: بعشر سور أمثاله".

ج ـ وصف الجمع بالمفرد:

١ـ يقول الله تعالى: (ولهم فيها أزواج مطهرة)[١٧] ـ البقرة ـ ٢٥.

يقول أبو حيان:[١٨] " و (مطهرة) صفة لـ (الأزواج) مبنية على (طهرت) كالواحدة المؤنثة، وقرأ زيد بن علي (مطهرات) فجمع بالألف والتاء على (طهرن).

قال الزمخشري:[١٩] "وهما لغتان فصيحتان، يقال: النساء فعلن، وهي فاعلة، ومنه بيت الحماسة:[٢٠]

واذا العذارى بالدخان تقنعت

واستعجلت نصب القدور فملت

المعنى: وجماعة أزواج مطهرة. انتهى كلامه.

وفيه تعقب أن اللغة الواحدة أولى من الأخرى، وذلك أن جمع مالا يعقل اما أن يكون جمع قلة، ـ أو جمع كثرة.

ان كان جمع كثرة فمجيء الضمير على حد ضمير الواحدة أولى من مجيئه على حد ضمير الغائبات.

وان كان جمع قلة فالعكس نحو: الأجذاع انكسرن، ويجوز انكسرت، وكذلك اذا كان ضميرا عائدا على جمع العاقلات، الأولى فيه النون من التاء (فاذا بلغن أجلهن)[٢١]، (والوالدات يرضعن)[٢٢]، ولم يفرقوا في ذلك بين جمع القلة والكثرة كما فرقوا في جمع مالا يعقل "اهـ

٢ـ يقول الله تعالى: (وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة) البقرة ـ ٨٠.

يقول أبو حيان:[٢٣] "وقد تقدم ذكر العد في الأيام بأنها سبعة

أو اربعون، وقيل: أراد بقوله: (معدودة)، أي قلائل يحصرها العد، لا أنها معينة في نفسها" اهـ

٣ـ يقول الله تعالى: (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما) النساء ـ ٥.

١ـ يقول الفراء:[٢٤]: "والعرب تقول في جمع النساء (اللاتي) أكثر ما يقولون: (التي) ويقولون في جمع الأموال وسائر الأشياء سوى النساء (التي) أكثر مما يقولون فيه (اللاتي) "١هـ

٢ـ ويقول أبو حيان[٢٥] "وقرأ الحسن والنخعي (اللاتي)، وقرأ الجمهور (التي). قال ابن عطية: والأموال جمع ما لا يعقل والأصوب فيه قراءة الجماعة. انتهى، و (اللاتي) جمع في المعنى لـ (التي) فكان قياسه أن لا يوصف به الا بما وصف به مفرده بالتي، والمذكر لا يوصف بالتي سواء كان عاقلا أو غير عاقل، فكان قياس جمعه أن لا يوصف بجمع (التي) الذي هو (اللاتي)، والوصف بالتي يجري مجرى الوصف بغيره من الصفات التي تلحقها التاء للمؤنث.

فاذا كان لنا جمع مالا يعقل فيجوز أن يجري الوصف عليه كجريانه على الواحدة المؤنثة، ويجوز أن يجري الوصف عليه كجريانه على جميع المؤنثات، فتقول: عندي جذوع منكسرة، كما تقول: امرأة طويلة، وجذوع منكسرات، كما تقول: نساء صالحات، جرى الوصف في ذلك مجرى الفعل.

والأولى في الكلام معاملته معاملة ماجرى على الواحدة. هذا اذا كان جمع مالا يعقل في الكثرة.

فاذا كان جمع قلة فالأولى عكس هذا الحكم، فأجذاع منكسرات أولى من أجذاع منكسرة، وهذا فيما وجد له الجمعان جمع القلة والكثرة.

أما مالا يجمع الا على أحدهما فينبغي أن يكون حكمه على حسب ما تطلقه عليه من القلة والكثرة.

واذا تقرر هذا أنتج أن (التي) أولى من (اللاتي)، لأنه تابع لجمع مالا يعقل ولم يجمع مال على غيره، ولا يراد به القلة لجريان الوصف به مجرى الوصف بالصفة التي تلحقها التاء للمؤنث، فكذلك قراءة الجماعة اصوب" اهـ

٣ـ ويقول السمين[٢٦]: "والجمهور على (التي جعل الله لكم) بلفظ الافراد صفة للأموال، لأنه تقدم غير مرة أن جمع مالا يعقل في الكثرة، أو لم يكن له الا جمع واحد الأحسن فيه: أن يعامل معاملة الواحدة المؤنثة، والأموال من هذا القبيل، لأنها جمع مالا يعقل، ولم تجمع الا على(أفعال) وان كانت بلفظ القلة، لأن المراد بها الكثرة" اهـ

٤ـ يقول الله تعالى: (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى) الأنعام ـ ١٩.

يقول أبو حيان:[٢٧] "وأخرى: صفة آلهة، وصفة جمع مالا يعقل كصفة الواحدة المؤنثة كقوله (مآرب أخرى)، و (الأسماء الحسنى)، ولما كانت الآلهة حجارة أجريت هذا المجرى" اهـ

٥ـ يقول الله تعالى: (ولله الأسماء الحسنى) الأعراف ـ ١٨٠

١ـ يقول العكبري:[٢٨] "الحسنى: صفة مفردة لموصوف مجموع، وأنث لتأنيث الجمع" اهـ.

٣ـ ويقول أبو حيان[٢٩]. (الحسنى): هي تأنيث (الأحسن)، ووصف الجمع الذي لا يعقل بما يوصف به الواحدة، كقوله: (ولي فيها مآرب أخرى) وهو فصيح. ولو جاء على المطابقة لكان التركيب (الحسن) على وزن (الأُخَر)، كقوله: "فعدة من أيام أخر"، لأن جمع ما لا يعقل يخبر عنه، ويوصف المؤنثات وان كان المفرد مذكرا.

وقيل: (الحسنى): مصدر وصف به" اهـ.

٦ـ يقول الله تعالى: (ولى فيها مآرب أخرى) طه ١٨.

١ـ يقول الفراء:[٣٠] "جعل (أخرى) نعتا وهي جمع، ولو قال:

(أخر) لجاز كما قـــال الله (فعدة من أيام أخر)، ومثله: (ولله الاسماء الحسنى) "اهـ.

٢ــ ويقـــول العكبري[٣١] "(وأخرى) على تأنيث الجمع، ولو قال: (أخر) لكان على اللفظ" اهـ.

٣ــ ويقول أبـــو حـــيان[٣٢] "وعامل (المآرب) وان كان جمعا معاملة الواحدة المؤنثة، فأنبعها صفتها في قوله (أخرى) ولم يقل (أخر) رعيا للفواصل، وهو جائز في غير الفواصل، وكان أجود وأحسن في الفواصل" اهـ.

٧ــ يقول الله تعالى: (ويذهب بطريقتكم المثلى) طه ــ ٦٣.

يقول الفراء:[٣٣]" وقـــوله: (المثلى) يريد: تانيث الأمثل، ولم يقل: المثل، مثل (الأسماء الحسنى).

وان شئت جعلت (المثلى) مؤنثة لتأنيث الطريقة.

والعرب تقول للقوم: هؤلاء طريقة قومهم وطرائق قومهم: اشرافهم، وقوله: (كنا طرائق قددا)[٣٤] من ذلك.

ويقولون للواحد ــ أيضا ــ : هذا طريقة قـــومه، ونظورة قومه، وبعضهم: ونظيرة قومه.

ويقولون للجمع بالتوحـــيد والجمع: هؤلاء نظورة قـــومه، ونظائر قومهم" اهـ.

٨ــ يقول الله تعالى: (فأنبتنا به حـــدائق ذات بهجة) النمل ــ ٦٠.

يقول أبو حيان[٣٥] "وقرأ الجمهور (ذات) بالافراد، (بهجة) بسكون الهاء.

وجمع التكسير يجري في الوصف مجرى الواحدة، كقـــوله: "أزواج مطهرة"، وهو على معنى جماعة" اهـ.

مادل على الجمع ــ اسم الجنس الجمعي.

أ ــ وصفه بالمفرد:

١ــ يقول الله تعالى: (والسحاب المسخر بين السماء والأرض) البقرة ــ ١٦٤.

يقول السمين:[٣٦] " والسحاب: اســـم جنس، واحـــدته: سحابة سمي بذلك، لا نسحابه، كما قيل له: حبُو، لأنه: يحبـــو: ذكر ذلك أبو علي، وباعتبار كونه اسم جنس وصفه بـــوصف الواحد المذكر في قوله: (المسخر) كقوله: "أعجاز نخل منقعر". ولما اعتبر معناه تارة أخرى وصفه بما يوصف به الجمع في قـــوله "سحابا ثقالا" ويجوز أن يوصف بما يوصف به المؤنثة الواحـــدة كقوله: "أعجاز نخل خاوية".

وهكذا كل اسم جنس فيه لغتان: التذكير باعتبـــار اللفظ، والتأنيث باعتبار المعنى"اهـ.

٢ــ يقول الله تعالى: (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا) يس ــ ٨٠.

١ــ يقول الفراء:[٣٧] "وقوله: من الشجر الأخضر، ولم يقل (الخضر)، وقد قـــال الله تعالى: (متكئين على رفرف خضر) ولم يقل: أخضر، والرفرف ذكر مثل الشـــجر، والشـــجر أشـــد اجتماعا، وأشبـــه بالواحـــد من الرفرف، ألا ترى اجتماعه كاجتماع العشب والحصى والتمر، وأنت تقول: هذا حـــصى أبـــيض وحـــصى أســـود، لأن جمعه أكثر في الكلام من انفراد واحده، ومثل الحنطة السمراء، وهي واحدة في لفظ جمع، ولو قيل: حنطة سمر كان صوابا، ولو قـــيل: الشـــجر الخضر كان صوابا، كما قيل: الحنطة السمراء، وقد قال الآخر:[٣٨]

بمر جاب مادام الأراك به خضرا

فقال: (خضرا) ولم يقل (أخضر)، وكل صواب.

والشجر يذكر ويؤنث، قال الله تعالى: (لآكلون من شـــجر من زقوم فمالئون منها البطون)[٣٩] فذكر، ولم يقل فيها، وقال: "فاذا أنتم منه توقدون" فذكر"اهـ.

٢ــ ويقول الآلوسي.[٤٠] "الأخضر: صفة الشـــجر، وقـــرئ

الخضراء، وأهل الحجاز يؤنثون الجنس المميز واحده بالتاء، وأهل نجد يذكرونه الا ألفاظا استثنيت في كتب النحو. وذكر بعضهم أن التذكير لرعاية اللفظ، والتأنيث لرعاية المعنى، والجمع تؤنث صفته، وقيل: لأنه في معنى الشجرة، وكما تؤنث صفته يؤنث ضميره كما في قوله تعالى: (لآكلون من شجر من زقوم، فمالئون منها البطون) " اهـ

٣ــ يقول الله تعالى: "تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) القمر ــ ٢٠.

١ــ يقول النحاس:[٤١] "النخل: تذكر وتؤنث، لغتان جاء بها القرآن".

٢ــ ويقول الزمخشري:[٤٢]. وذكر صفة (نخل) على اللفظ، ولو حملها على المعنى لأنث، كما قال: "أعجاز نخل خاوية".

٣ــ ويقول العكبري:[٤٣] "منقعر صفة لنخل، ويذكر ويؤنث.

٤ــ يقول الله تعالى: (تنزع الناس كانهم أعجاز نخل خاوية) الحاقة ــ ٧.

يقول النحاس:[٤٤] "خاوية: على تأنيث النخل" اهـ.

ب ـ وصف اسم الجنس، أو اسم الجمع بالجمع:

١ــ يقول الله تعالى: (حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت) الأعراف ــ ٥٧.

١ــ يقول النحاس:[٤٥] "يذكر ويؤنث، وكذا كل جمع بينه وبين واحدته هاء، ويجوز نعته بواحد، تقول: سحاب ثقيل وثقيلة" اهـ

٢ــ ويقول الزمخشري[٤٦]: "سحائب ثقالا بالماء جمع سحابة، (سقناه) الضمير للسحاب على اللفظ، ولو حمل على المعنى كالثقال لأنث، كما لو حمل الوصف على اللفظ، لقيل: ثقيلا "اهـ

٣ــ ويقول العكبري[٤٧] "سحابا: جمع سحابة، وكذلك وصفها بالجمع "١هـ.

٢ــ يقول الله تعالى: (وينشئ السحاب الثقال) الرعد ــ ١٢.

يقول الفراء:[٤٨] "السحاب وان كان لفظه واحدا، فانه جمع، واحدته (سحابة)، جعل نعته على الجمع كقوله: (متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان) "ولم يقل: أخضر ولا حسن، ولا الثقيل للسحاب، ولو اتى بشيء من ذلك كان صوابا، كقوله: (جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون).

٣ــ يقول الله تعالى: (متكئين على رفرف خضر) الرحمن ــ ٧٦.

١ــ يقول النحاس[٤٩] "ف (خضر) جمع أخضر، ورفرف لفظه واحد، وقد نعت بجمع، لأنه اسم للجمع، كما قال: مررت برهط كرام وقوم لئام، وكذا ابل حسان وغنم صغار" اهـ.

٢ــ ويقول العكبري:[٥٠] "ورفرف في معنى الجمع، فلذلك وصف بخضر".

٣ــ ويقول ابو حيان:[٥١] "ووصف بالجمع، لأنه اسم جنس، الواحدة منها (رفرفة)، واسم الجنس يجوز أن يفرد نعته، وأن يجمع، لقوله: (والنخل باسقات)[٥٢]، وحسن جمعه هنا، لمقابلته لحسان.

٤ــ يقول الجمل:[٥٣] "اسم جمع أو اسم جنس جمعي، وكذا يقال في عبقري، وعبارة السمين: الرفرف: اسم جنس، وقيل اسم جمع نقلهما مكي،[٥٤] والواحدة (رفرفة) "اهـ.

٥ــ يقول الآلوسي:[٥٥] "على رفرف: اسم جنس، أو اسم جمع واحدة رفرفة، وعلى الوجهين يصح وصفه بقوله تعالى: "خضر" وجعله بعضهم جمعا لهذا الوصف، ولا يخفى أن أمر الوصفية يتوقف على ذلك الجعل "اهـ.

٤ــ يقول الله تعالى: (انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج) الدهر ــ ٢٠.

١ــ يقول الزمخشري:[٥٦] "نطفة أمشاج، كبرمة أعشار ودبر أكباش، وهي ألفاظ مفردة غير جموع، ولذلك وقعت صفات للأفراد، ويقال ــ أيضا ــ: نطفة مشيج، قال الشماخ:[٥٧]

طوت أحشاء مرتجة لوقت
على مشيج سلالته مهين

ولا يصح أمشاج أن يكون تكسيرا له، بل هما مثلان في الافراد لوصف المفرد بهما".

٢ــ ويقول العكبري:[٥٨] "وأمشاج: بدل أو صفة، وهو جمع (مشيج) وجاز وصف الواحد بالجمع هنا، لأنه كان في الأصل متفرقا، ثم جمع، أي نطفة أخلاط" اهـ.

٣ــ ويقول أبو حيان:[٥٩] "والنطفة: أريد بها الجنس، فلذلك وصفت بالجمع، كقوله: (على رفرف خضر)، أو لتزيل كل جزء من النطفة نطفة... وقول الزمخشري مخالف لنص سيبويه[٦٠] والنحويين على أن (أفعالا) لا يكون مفردا.

قال سيبويه:[٦١] "وليس في الكلام (أفعال) الا أن يكسر عليه اسما للجميع، وماورد من وصف المفرد بأفعال تأولوه "اهـ.

٥ــ يقول الله تعالى: (عليهم ثياب سندس خضر)

يقول أبو حيان:[٦٢] "قرئ (خضر) بالجر صفة لسندس، ووصف اسم الجنس الذي بينه وبين واحده تاء التأنيث بالجمع جائز فصيح كقوله تعالى: (وينشئ السحاب الثقال)، وقال: (والنخل باسقات) فجعل الحال جمعا، واذا كانوا قد جمعوا صفة اسم الجنس الذي بينه وبين واحد تاء التأنيث المحكي بالجمع كقولهم: "أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض" حيث جمع وصفهما ليس بسديد، بل هو جائز أورده النحاة مورد الجواز بلا قبح "اهـ.

٦ــ يقول الله تعالى: (وأرسل عليهم طيرا أبابيل) الفيل ــ ٣.

١ــ يقول الزمخشري[٦٣]: وقرأ أبو حنيفة رحمه الله: يرميهم، أي الله، لأنه اسم جمع مذكر، وانما يؤنث على المعنى".

٢ــ يقول جلال الدين المحلي[٦٤]: أبابيل: جماعات جماعات، قيل: لا واحد له كأساطير، وقيل: واحده أبول أو ابال أو ابيل كعجول ومفتاح وسكين" اهـ.

ويعلق الشيخ الجمل بقوله: "أبابيل: نعت لطيرا، لأنه اسم جمع".

خ ـ وصف ما كان في معنى اسم الجنس بالجمع "نبات".

يقول الله تعالى: (فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) طه ٥٣.

١ــ يقول الأخفش:[٦٥] "يريد أزواجا شتى من نبات، أو يكون النبات هوشتى".

٢ــ ويقول الزمخشري:[٦٦] "ويجوز أن يكون صفة للنبات، والنبات مصدر سمي به النابت، كما سمي بالنبت، فاستوى فيه الواحد والجمع، يعني: أنها شتى مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل "اهـ.

٣ــ ويقول العكبري:[٦٧] "شتى: جمع شتيت مثل: مريض ومرضى وهو صفة لأزواج أو لنبات" اهـ.

٤ــ ويقول أبو حيان:[٦٨] "والأجود أن يكون (شتى) في موضع نصب نعتا لقوله (أزواجا)، لأنها المحدث عنها" اهـ.

ثانيا: ماورد في كتب اللغة والنحو:

١ــ يقول ابن قتيبة:[٦٩] "باب مخالفة ظاهر اللفظ ومعناه".

"ومنه: أن يوصف الواحد بالجمع نحو قولهم: برمة أعشار، وثوب أهدام واسمال، ونعل أسماط، أي غير مطبقة، قال الشاعر:[٧٠]

جاء الشتاء وقميصي أخلاق" اهـ.

ويقول ــ أيضا ــ[٧١]: "باب ما جاء على بنية الجمع وهو

وصف للواحد" "قالوا: برمة أعشـــار وثوب أسمال وأخلاق، ونعل أسماط، اذا كانت غير مخصوفة وسراويل اسماط اذا كانت غير محشوة، قال الكسائي: وانما قالوا: ثوب أخلاق، أرادوا أن نواحيه أخلاق، فلذلك جمع "اهـــ.

٢ــ ويقول الحريري أثناء حديثه عن (بين)[٧٢]: "ومثله: "يزجي سحابا ثم يؤلف بينه" ، وانما ذكر السحـــاب وهو جمع، لأنه من قبيل الجمع الذي بينه وبين واحده الهاء، وهذا النوع من الجمع مثل الشجر والسحاب والنخل والنبـــات يجوز تذكيره وتأنيثه كما قال سبحانه في سورة القمر: (كأنهم أعجاز نخل منقـــعر)، وقال تبارك وتعالى في سورة الحاقـــة (كانهم أعجاز نخل خاوية) اهـــ.

٣ــ ويقـــول العكبري في اعراب حـــديث الحارث البـــكري الذهلي[٧٣] "قال: فمرت به سحابان سود فنودي منها"[٧٤].

(السحاب) المفرد يكون واحدا وجمعا، ويذكر ويؤنث، قال الله تعالى (حتى اذا أقلت سحابا ثقالا) فجاء بـــ (ثقـــال) على الجمع، ثم أعاد الضمير اليه على لفظ الواحد في قوله: (فسقناه الى بلد)، وقال الله تعالى: (ألم تر أن الله يزجي سحابـــا ثم يؤلف بينه) فـــ (بين) تقتضي الجمع، ثم جعل الضمير مذكرا.

ففي هذا الحديث ثنى (السحـــاب)، فقـــد اســـتعمله على الافراد، ويجوز أن يكون الواحد جمعا ثم ثناه، كما قالوا: ابلان، كأنه قال: قطيعان من الابل، فعلى هذا يكون قوله: "سود" حملا على الجمع، وقد يقال: سحابة وسحاب مثل تمرة وتمر، فيكون جنسا، فيجيء الجمع على معناه" اهـــ.

٤ــ ويقول الزمخشري:[٧٥] "واعلم أن أبنية القـــلة أقـــرب الى الواحد من أبنية الكثرة، ولذلك يجري عليه كثير من احـــكام المفرد، ومن ذلك جواز تصغيره على لفظـــه خلافـــا للجمـــع الكثير، ومنها جواز عود الضمير اليها بلفظ الافراد نحو قـــوله تعالى: (وان لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه) اهـــ.

٥ــ ويعقب ابن يعيش عليه بقوله:[٧٦] "فان قيل: ولم اختص جمع القلة بأفعل وأفعال؟ فالجواب: أنه لما كان بين جمع القلة والواحد من المشابهة ما تقدم ذكره من كون صيغته مســـتأنفة له، ويجري عليه كثير من أحـــكام المفرد من نحو عود الضمير مفردا اليه، كقوله تعالى: (وان لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه)، وجواز تصغيره على لفظه، ووصف المفرد بـــه من نحو بـــرمة اعشار وثوب أسمال، اختاروا هذين البـــناءين، لأنهما لا يكاد يوجد لهما نظير في الآحاد، ليعلم أنهما للجمع، ولا يقـــع فيهما التباس بالواح" اهـــ.

٦ــ ويقول الزمخشري ــ أيضا.[٧٧] "ويقع الاســـم المفرد على الجنس ثم يميز منه واحدته بالتاء، وذلك نحو تمر وتمرة" اهـــ.

٧ــ ويعقب ابن يعيش عليه بقـــوله:[٨٨] "اعلم أن هذا الضرب من الأسماء التي يميز فيها الواحد بالتاء من نحو: شعيرة وشـــعير، وتمرة وتمر، انما هو عندنا اسم مفرد واقع على الجنس، كما يقع على الواحد، وليس بتكسير على الحقيقـــة، وان اســـتفيد منه الكثرة، انما هي من مدلوله اذا كان دالا على الجنس، والجنس يفيد الكثرة، والكوفيون يزعمون أنه جمع كسر عليه الواحد.

ويؤيد ما ذكرناه أمران: "أحدهما .....

الأمر الثاني: أنه يوصف بالواحـــد المذكر من نحو قـــوله تعالى: (اعجاز نخل منقعر) وأنت لا تقول: مررت برجال قـــائم، فدل ذلك على ما قلناه.

فان قيل: فقد قـــال: "أعجاز نخل خاوية" فأنث، وقـــال: "والنخل باسقـــات" والحال كالوصف،وقـــال سبحـــانه: (السحاب الثقال) فوصفه بالجمع، فهلا دل ذلك على أنه جمع، لأن المفرد المذكر لا يوصف بالجمع؟ قـــيل: ان ذلك جاء على المعنى، لأن معنى الجنس العموم والكثرة، والحمل على المعـــنى

كثير" اهـ.

٨ـ ويقول الزمخشري ـ ايضا ـ[٧٩]:"ونحو النخل والتمر مما بينه وبين واحده التاء يذكر ويؤنث، قال الله تعالى: (كأنهم أعجاز نخل خاوية)، وقال"منقعر".

٩ـ ويعقب ابن يعيش عليه بقوله:[٨٠] "قد تقدم أن هذا الضرب من الجمع مما يكون واحده على بنائه من لفظه، وتلحقه تاء التأنيث ليبين الواحد من الجمع، فانه يقع الاسم فيه للجنس كما يقع للواحد، فاذا وصفته جاز في الصفة التذكير على اللفظ، لأنه جنس مع الافراد، والتأنيث على تأويل، على معنى الجماعة، وذلك نحو قوله تعالى: (أعجاز نخل خاوية) و "منقعر" ويجوز جمع الصفة مكسرا ومصححا نحو قوله تعالى: (السحاب الثقال)، ويقع على الحيوان، كما يقع على غيره من نحو: حمامة وحمام وبطة وبط وشاة وشاء، ولا يفصل بين مذكره ومؤنثه بالتاء، لأنك لو قلت للمؤنثة: حمامة وللمذكر حمام لالتبس بالجمع فتجنبوه لذلك، واكتفوا بالصفة، فاذا أرادوا الذكر قالوا: حمامة ذكر وشاة ذكر، وكذلك اذا أرادوا الأنثى قالوا: حمامة أنثى وشاة أنثى. حكى ذلك يونس فاعرفه "اهـ.

١٠ـ ويقول ابن الحاجب في قوله تعالى[٨١]: (فعدة من أيام أُخَر) جمع أخرى، وأما (أُخَر) فيجمع على (أواخر) مثل قولك: أفضل وأفاضل، و (آخرين) ان كان لمن يعقل، كقوله تعالى: (وآخرون يضربون)[٨٢]، وانما جمع ههنا على (فُعَل) وهو في المعنى جمع (آخر) لأنه للأيام، وواحدها يوم، ويوم انما يقال فيه آخر باعتبار أصل آخر وهو: أن كل صفة لموصوف مذكر مما لا يعقل فأنت بالخيار: ان شئت عاملتها معاملة الجمع المذكر، وان شئت عاملتها معاملة الجمع المؤنث، وان شئت عاملتها معاملة المفرد المؤنث، فتقول: هذه الكتب الأفاضل والفضليات والفضل والفضلى، فالأفاضل على لفظه في التذكير، والفضليات اجراء له مجرى المؤنث لكونه لا يعقل، والفضلى اجراء له مجرى الجماعة، وهذا جاء في الصفات والأخبار والأحوال، ولذلك جاء (أخر) نعتا لـ (الأيام) اجراء له مجرى المؤنث، ولولا ذلك لم يستقم، ولذلك لو قلت: جاءني رجال ورجال أخر لم يجز حتى تقول: (أواخر) أو (آخرون)، لأنه ممن يعقل.

وقد أجرت العرب لما لا يعقل من المذكر مثل هذا، ألا تراهم يقولون: الكتب اشتهريتهن، وهو للمذكر مثل (أخر).

ولما يأتي في الضمير لما لا يعقل من المذكر غير الأمرين ما يجمع المؤنث، وبالمفرد بخلاف الظاهر، فانه جاء له ما يجمع المذكر ممن يعقل اذا كان مكثرا كأنهم قصدوا أن يجعلوا لمن يعقل أمرا يختص به.

ولما كان جمع الظواهر جمع تصحيح يختص بمن يعقل شاركوا بين المذكر ممن لا يعقل وبينه في جمع المكسر، لاختصاصه بالجمع السالم".

١١ـ ويقول ـ أيضا ـ[٨٣]: "فان قلت: فقد قال الله تعالى: (فعدة من أيام أخر)، ومفرده (آخر)، فقد صح جمع (آخر) على (أخر).

قلت: انما جمع (آخر) هنا على (أخر) اجراء للمذكر الذي لا يعقل فيه مجرى المؤنث، وتجري عليه الضمائر، كما يوصف المؤنث الذي يعقل والذي لا يعقل، وكما يجرى عليهما الضمائر، فيجوز أن يقال: الأيام الأخر كما يقال: النساء والليالي الأخر، وليست ولسن واما لو قلت: الرجل الاخر فيمتنع" اهـ.

١٢ـ ويقول الرضي:[٨٤] "حكم جمع القلة حكم الآحاد، بدليل تصغيره على لفظه، مع انه نسب الى سيبويه ان (أفعالا) مفرد، ولذلك قال الله تعالى: (نسقيكم مما في بطونه) والضمير

للأنعام. وجاز وصف المفرد به نحو: برمة أعشـــار وثوب أسمال ونطفة أمشاج، ولم يوصف بغير هذا الوزن من الجموع" اهـــ.

الخلاصة:

نخلص مما تقدم الى ما يأتي:

١ــ كل صفة لموصوف مذكر جمع لما لا يعقـــل، أنت بـــالخيار فيها:

أ ــ ان شئت عاملتها معاملة جمع المذكر.

ب ــ وان شئت عاملتها معاملة جمع المؤنث.

ج ــ وان شئت عاملتها معاملة المفرد المؤنث.

٢ــ جمع مالا يعقل:

١ــ ما وجد له جمعان:

أ ــ ان كان للكثرة يجوز أن يجـــرى الوصـــف عليـــه كجريانه على الواحدة المؤنثة.

ويجوز أن يجري الوصف عليه كجريانه على جميـــع المؤنثات، والأولى: معاملته معاملة ما جرى على الواحدة.

ب ــ مالا يجمع الا على أحدهما.

يكون حكمه على حسب ما تطلقـــه عليه من القـــلة والكثرة.

٣ــ اسم الجنس الجمعي.

يوصف بما يوصف به الواحد المذكر، باعتبار كونه للجنس.

ويوصف بما يوصف به الجمع باعتبار المعنى.

ويجوز أن يوصف بما يوصف به المؤنثة الواحدة.

٤ــ كل اسم جنس فيه لغتان.

التذكير باعتبار اللفظ والتأنيث باعتبار المعنى.

٥ــ وصف المفرد بالجمع:

أ ــ يوصف الواحد ذو التفاصيل بالجمع، من حـــيث انها جملة.

بـــ يوصف المفرد والمثنى والجمع بلفظ (مثل) وما شابهه.

الهوامش

١) البحر المحيط ٢/٣٠.

٢)الدر المصون ٢/٢٦٩.

٣)املاء مامن به الرحمن ١/٨٨.

٤) الدر المصون ٢/٣٤٣.

٥) البحر المحيط ٢/٤١٧.

٦) في الآية. ٨٠ من البقرة.

٧) الدر المصون ٣/٩٦.

٨) البحر المحيط ٢/٣٢.

٩) الدر المصون ٢/٢٧١.

١٠) الآية ١٨ من سورة طه.

١١) الكشاف ٣/٣٩٥.

١٢) الكشاف ٢/٢٦١.

١٣) البحر المحيط ٥/٢٠٨.

١٤) الآية ٤٧ من سورة المؤمنون.

١٥) الآية ٣٨ من سورة محمد.

١٦) الآية ٢٢ من سور الواقعة.

١٧) (مطهرة) صفة لـــ (أزواج) وهو جمع ما يعقل، وانما جئت بالآية لما احتوت في تفسيرها على ذكر جمع مالا يعقل.

١٨) البحر المحيط ١/١١٧.

١٩) الكشاف ١/٢١٦.

٢٠) البيت لسليم بن ربيعة بن جفنة (انظر تنزيل الآيات ص ٣٥ ملحق ج ٤ بالكشاف).

٢١) الآية ٢٣٤ من البقرة. (٢٢) الآية ٢٣٣ من البقرة.

٢٢) الآية ٢٣٣ من البقرة.

٢٣) البحر المحيط ١/٢٧٨.

٢٤) معاني القرآن ١/٢٥٧.

٢٥) البحر المحيط ٣/١٦٩.

٢٦) الدر المصون ٣/٥٨٠.

٢٧) البحر المحيط ٤/٩٢.

٢٨) الاملاء ١/٢٨٩.

٢٩) البحر المحيط ٤/٤٢٩.

٣٠) معاني القرآن ٢/١٧٧.

٣١) الاملاء ٢/١٢٠.

٣٢) البحر المحيط ٦/٢٣٥.

٣٣) معاني القرآن ٢/١٨٥.

٣٤) الجن ١١.

٣٥) البحر المحيط ٧/٨٩.

٣٦) الدر المصون ٢/٢٠٨.

٣٧) معاني القرآن ٢/٣٨١.

٣٨) بهرجاب اسم موضع (انظر اللسان: بهرجب).

٣٩) الواقعة ٥٢.

٤٠) روح المعاني ٢٣/٥٥.

٤١) اعراب القرآن ٣/٢٨٨.

٤٢) الكشاف ٤/٣٩.

٤٣) الاملاء ٢/٢٥٠.

٤٤) اعراب القرآن ٣/٤٩٦.

٤٥) اعراب القرآن ١/٦٢٠.

٤٦) الكشاف ٢/٨٤.

٤٧) الاملاء ١/٢٧٧.

٤٨) معاني القرآن ٢/٦٠.

٤٩) اعراب القرآن ٣/٣١٦.

٥٠) الاملاء ٢/٢٢٢.

٥١) البحر المحيط ٨/١٩٩.

٥٢) (باسقات) حال، والحال وصف، فهو في معنى الصفة.

٥٣) الفتوحات الالهية ٤/٢٦٧.

٥٤) انظر مشكل اعراب القرآن ٢٧/٣٤٧.

٥٥) روح المعاني ٢٧/١٢٤.

٥٦) الكشاف ٤/١٩٤.

٥٧) انظر تنزيل الآيات ٤/٥٥٩ بآخر الكشاف.

٥٨) الاملاء ٢/٢٧٥.

٥٩) البحر المحيط ٨/٣٩٣.

٦٠) يرد اعتراض أبي حيان على الزمخشري ما ورد في الكتاب في موضع آخر أن (أفعالا) قد يرد للواحد، يقول سيبويه: وأما أفعال فقد يقع للواحد، من العرب من يقول: هو الأنعام، وقال الله عز وجل: (نسقيكم مما في بطونه) وقال أبو الخطاب "سمعت العرب يقولون: هذا ثوب أكباش" اهـ. (انظر الكتاب ٣/٢٣٠.

٦١) الكتاب ٤/٢٧٤.

٦٢) البحر المحيط ٨/٤٠٠.

٦٣) الكشاف ٤/٢٨٦.

٦٤) الجمع مع الجلالين ٤/٥٨٩.

٦٥) معاني القرآن ٢/٤٠٧.

٦٦) الكشاف ٢/٥٤٠.

٦٧) الاملاء ٢/١٢٢.

٦٨) البحر المحيط ٦/٢٥١.

٦٩) تأويل مشكل القرآن ٢٨٦.

٧٠) انظر الاقتضاب ١٢، معاني القرآن للفراء ١/٣٢٧، لسان العرب (خلق).

٧١) أدب الكاتب ٦٢١.

٧٢) درة الغواص ٨٢.

٧٣) اعراب الحديث النبوي ص ١٧٣.

٧٤) من حديث طويل، وفيه: "خرجت أشكو العلاء الحضرمي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم... اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه فمرت به سحابان سود... الخ والحديث مخرج بهامش الصفحة المذكورة في الكتاب.

٧٥) المفصل ٥/١١.

٧٦) ابن يعيش ٥/١٥.

٧٧) المفصل ٥/٧١.

٧٨) ابن يعيش ٥/٧١.

٧٩) المفصل ١٠٦/٥.

٨٠) ابن يعيش ١٠٦/٥.

٨١) أمالي ابن الحاجب رقم (٥) ص ٣٤، ٣٥.

٨٢) الآية ٢٠ سورة المزمل.

٨٣) أمالي ابن الحاجب ١٦١/٤.

٨٤) شرح الكافية للرضي ٤٠/١.

المراجع والمصادر:

١ــ أدب الكاتب لابن قتيبة تحقيق محمد الدالي ــ مؤسسة الرسالة.

٢ــ اعراب القرآن لأبي جعفر النحاس. تحقيق د/ زهير غازي زاهد.

احياء التراث الاسلامي ٢٦ ــ وزارة الأوقاف ــ الجمهورية العراقية.

٣ــ اعراب الحديث النبوي للعكبري تحقيق الدكتور حسن موسى الشاعر، دار المنارة للنشر والتوزيع جدة ــ الطبعة الثانية.

٤ــ الاقتضاب في شرح أدب الكاتب لابن السيد البطليوسي ــ دار الجيل بيروت.

٥ــ الأمالي النحوية لابن الحاجب تحقيق هادي حسن حمودي ــ عالم الكتب.

٦ــ املاء مامن به الرحمن في اعراب القرآن للعكبري ــ مصطفى البابي الحلبي ١٩٧٠م.

٧ــ البحر المحيط لأبي حيان ــ دار الفكر ــ مصور عن طبعة دار السعادة بمصر ١٣٢٩هـ.

٨ــ تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ــ السيد أحمد صقر ــ المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.

٩ــ تنزيل الايات على الشواهد من الأبيات شرح شواهد الكشاف لمحب الدين الخطيب (بآخر كتاب الكشاف للزمخشري).

١٠ــ درة الغواص في أوهام الخواص للحريري ــ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم دار نهضة مصر بالفجالة ــ مصر.

١١ــ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي. تحقيق د/ أحمد محمد الخراط ــ دار القلم.

١٢ــ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي، دار احياء التراث العربي ــ مصور عن دار الطباعة المنيرية بمصر.

١٣ــ شرح كافية ابن الحاجب للرضي ــ دار الكتب العلمية مصور عن شركة الصحافة العثمانية.

١٤ــ شرح المفصل لابن يعيش ــ عالم الكتب ــ مكتبة المتنبي القاهرة.

١٥ــ الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية.

للشيخ سليمان الجمل ــ دار احياء التراث العربي بيروت.

١٦ــ الكتاب لسيبويه تحقيق عبد السلام هارون.

١٧ــ الكشاف للزمخشري، دار المعرفة بيروت مصور عن مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.

١٨ــ لسان العرب لابن منظور. دار بيروت للطباعة والنشر.

١٩ــ مشكل اعراب القرآن. تحقيق ياسين محمد السواس ــ دار المأمون للتراث.

٢٠ــ معاني القرآن للفراء. عالم الكتب مصورة عن طبعة دار الكتب ١٩٥٥م.

٢١ــ المفصل للزمخشري (مع شرح ابن يعيش).